شاب غير مصحوب بذويه في أثناء مقابلة مع عاملة أخصائية معنية بتقديم النصح للاجئين

العمل الاجتماعي من أجل طالبي اللجوء الصغار البعيدبن عن ذويهم

بقلم: رافي كولي

يوجد في المملكة المتحدة حالياً حوالي ٥٠٠٠ شاب من طالبي اللجوء الذين أتوا إليها بمفردهم، وترعاهم السلطات المحلية أو تقدم لهم الدعم في الوقت

وكثير من هؤلاء يعتني بهم العاملون في حقل الرعاية الاجتماعية الملتزمون قانوناً بضمان حصول طالبي اللجوء على نفس نوعية الرعاية والحماية التي يحصل عليها شباب السكان الأصليين ممن لهم نفس الاحتياجات.

ويمثل هؤلاء الصغار من بعض الجوانب نسخة جديدة من التحديات والمعضلات المعهودة التي يواجهها العاملون في الميدان الاجتماعي. فالانفصال عن الأسرة والضياع يمثلان جزءاً جوهرياً من قصة أي طفل بعيد عن ذويه، وهو ما يصدق على الكثيرين من هؤلاء الشباب الذين يعتني بهم العاملون في المجال الاجتماعي. لكن تقديم الرعاية والحماية لطالبي اللجوء الذين أتوا عبر البحار بدون ذويهم يطرح عدداً من التحديات المختلفة الجديدة.

لقد واجه الكثيرون منهم الإحساس الشديد بعدم الأمان، ومازالوا يعايشون هذا الإحساس؛ حيث كانوا في الماضي في أغلب الأمر مهاجرين اقتلعوا من ديارهم على حين غرة منهم، وأصبحوا في الوقت الحاضر شباباً ربما لا يحصلون دائماً على مستوى طيب من الرعاية البديلة، وسوف يترقبون في المستقبل، باعتبارهم طالبي لجوء، قرارات البت في طلبات حصولهم على الجنسية. وعليهم أن يجاهدوا للعيش في سياق غير مألوف بالنسبة إليهم، تسوده عادات وتقاليد وأعراف ولغة غريبة عليهم. وقد تكون أسرهم أبعدتهم طلباً لنجاتهم من الخطر، مما يرسل لهؤلاء الشباب رسالة معقدة وشديدة العبء أحياناً عن موقف أسرهم منهم. وربما يعرف هؤلاء الصغار ما الذي ينبغي عليهم أن يفعلوه لأنفسهم، وربما لا يعرفون. وقد تكون مراحل الوصول والاستقرار والحصول على الجنسية امتحاناً عسيراً لمرونتهم حيث يندمجون مع بيئات جديدة، ويبتعدون عن بيئاتهم التي نشأوا فيها.

ولكن حصولهم على الجنسية ليس كافياً، فربما يكونون كغيرهم من المهاجرين قد دفعتهم أسرهم لتحقيق النجاح المادي والعلمي، ولكنهم على العكس من المهاجرين لأسباب اقتصادية قد تتأثر طلباتهم للجوء سلباً في حالة الكشف عن أي دوافع اقتصادية خفية لفرارهم. وربما يكونون قد تعلموا أن يقدموا أبسط أنواع الأسباب وأكثرها قبولاً تبريراً لفرارهم، وبذلك لا يكشفون عن الظروف المعقدة لرحيلهم.

وينبغي على العاملين في المجال الاجتماعي أن يسألوا أنفسهم الأسئلة التالية:

- كيف نعرف معلومات عن حياة طالب اللجوء قبل انفصاله عن ذويه الذين وصل دونهم؟
- كيف نتعامل مع الصمت؟
- كيف نلبي حاجة القصّر البعيدين عن ذويهم إلى جو الأسرة والعلاقات الاجتماعية والرعاية الصحية والتعليم والإحساس الدائم بقيمة الذات؟
- هل نعرف ما فيه الكفاية عن القضايا القانونية والسياسية والنظرية والبحثية المتعلقة باللاجئين؟
- كيف يمكن أن نخطط لإعادة التوطين أو لمّ شمل طالبي اللجوء وأسرهم الأصلية، أو لإعادتهم إلى أوطانهم في حالة الضرورة؟

تشير الدلائل الحالية إلى أن الإحساس المزمن بعدم الأمان بشأن الحصول على وضع اللاجئ يهيمن بشدة على حياة هؤلاء الصغار البعيدين عن ذويهم لدرجة أنه يحطم ثقتهم في المستقبل.[2] ويواجه العاملون في الميدان الاجتماعي، الذين يعرفون ضرورة التفكير في أخطار الحرمان الاجتماعي على الشباب الذين يخرجون من دائرة الرعاية،

تحدياً إضافياً يتمثل في احتمال رفض إعطاء الجنسية، على الأقل لبعض من يرعونهم من الصغار المنفصلين عن ذويهم.

ولتقييم كيفية استجابة العاملين في الميدان الاجتماعي لهذه التحديات، أجريتُ مقابلات مع ٣٥ من الأخصائيين الاجتماعيين بالسلطات المحلية، الذين يعملون في أربع إدارات للخدمة الاجتماعية سواء في المدن أو الريف بالمملكة المتحدة. فطلبت منهم أن يعطوني وصفاً وتحليلاً لممارساتهم المتعلقة بأحد طالبي اللجوء الموجود في المملكة المتحدة بدون أسرته، والذي يتولون رعايته. فاختاروا الحديث عن شباب من الصومال وإريتريا وإثيوبيا وأفغانستان وسريلانكا وكوسوفا وألبانيا، تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة، ويقل متوسط أعمارهم قليلاً عن السادسة عشرة. ويلاحظ أن ثلثي هؤلاء الشباب من الذكور مما يكشف عن اتجاه عام لدى الصبية، لا الفتيات، لطلب اللجوء إلى بريطانيا. والغالبية العظمى منهم مُنحت إذناً مؤقتاً بالبقاء في المملكة المتحدة ريثما يتم النظر في طلباتهم. والواقع أن واحداً فقط من بين كل أربعة منهم هو الذي يحصل على الإذن بالبقاء.

يمكن أن يقدم الأخصائيون الاجتماعيون بعض الجسور

وفي العادة يعاني الشباب من السكان الأصليين الذين يرعاهم الأخصائيون الاجتماعيون من العيش في بيئات أسرية مؤذية، أو من سياق الفقر المادي. ولكن في حالة الكثيرين من القصّر الذين جاءوا دون ذويهم إلى المملكة المتحدة، كانت الاضطرابات الأهلية المزمنة في وطنهم هي التهديد الذي دفعهم إلى المجيء، لا الحرمان المادي أو العاطفي.

الصمت

ماذا يفهم الصغار من إرسالهم هذه المسافة الطويلة بعيداً عن الأذى، وعن ديارهم أيضاً؟ لقد انتهيت إلى أن قلة قليلة من العاملين في المجال الاجتماعي هم الذين يعرفون إجابة على هذا السؤال، ليس لأنهم لا يسألون هؤلاء الأطفال، ولكن لأنهم لا يحصلون على إجابة منهم. فالصغار يرفضون محاولة إشراكهم في الأنشطة التي يحكون من خلالها قصص حياتهم. وكثيرون منهم لا يدرون أين أسرهم، ولا يتصلون بها. وبخلاف شباب السكان الأصليين فإن طالبي اللجوء من هذا النوع لا يعطون الأخصائيين الاجتماعيين أسماء آبائهم أو تواريخ ميلادهم أو معلومات عن تكوين أسرهم أو عناوين أو أرقام تليفونات دقيقة لأفراد أسرهم. ويعي الأخصائيون الاجتماعيين سبب إحجام الصغار عن التحدث إليهم بوصفهم رموزاً للسلطة، ويدركون أنهم يخشون الإدلاء بهذه المعلومات خوفاً من طردهم. ومن الممكن أن يكون الصمت ملمحاً مهيمناً على علاقتهم بالأخصائيين الاجتماعيين، فالثقة تنشأ ببطء وأحياناً تستغرق سنوات، والمعلومات تتكشف في صورة شذرات متناثرة. ويعرف الأخصائيون الاجتماعيين فائدة الصمت وعيوبه؛ فالصمت يجلب الأمن، وتسريب المعلومات يعني الخطر. ولكن الصمت قد يكون عبئاً أيضاً، فالطفل الذي أبعد عن أهله حتى يكون في مأمن ربما يشعر بأن ذويه قد تخلوا عنه. وكونه أبعد عن أسرته، بينما هي باقية في ديارها، قد يوجد لديه قلقاً عميقاً بشأن سلامة الأسرة، وإحساساً بالذنب لأنه أصبح في مأمن دونهم.

ويستجيب الأخصائيون الاجتماعيون للصمت بطرق عديدة. فكثير منهم يتريثون لمعرفتهم بأهمية الموازنة بين ما يطلبونه وكيفية الطلب وتوقيته. وعلى الرغم من أن بعض الأخصائيين الآخرين يحجمون عن العمل في إدارة الهجرة، فقد يتشككون في صدق رواية الطفل إذا التزم الصمت ولم يحد عنه.

ويواجه أي مهاجر، سواء أكان مهاجراً لأسباب اقتصادية أو سياسية، معضلة الموازنة بين الاندماج في المجتمع المضيف و«الانسلاخ» عن المجتمع الذي تركه وراء ظهره. وهنا يمكن أن يقدم الأخصائيون الاجتماعيون لهم بعض الجسور للربط بين الاثنين، بأن يحاولوا مثلاً الحصول على معلومات عن أفراد الأسرة المفقودين عن طريق خدمة البحث عن المفقودين التابعة للصليب الأحمر (في حالة موافقة الطفل)، وبأن يصطحبوا الصغار لتناول «وجبات من بلادهم» في المطاعم، وأن يقدموا لهم القواميس الثنائية اللغة وكتب الطهو وسجاجيد الصلاة والمصاحف وبطاقات الاتصالات التليفونية الدولية. كما أنهم يساعدون هؤلاء الصغار على الاتصال بالمنظمات التي تنتمي لنفس ثقافاتهم، ويعملون بالتعاون الوثيق مع كبار العاملين في مجال الرعاية الاجتماعية والرعاة البديلين للأسر، الذين لا يوفرون مجرد الاتصال المنتظم والمتسق مع هؤلاء الصغار وإنما يوفرون من آن لآخر أسس الرعاية اللازمة لهم.

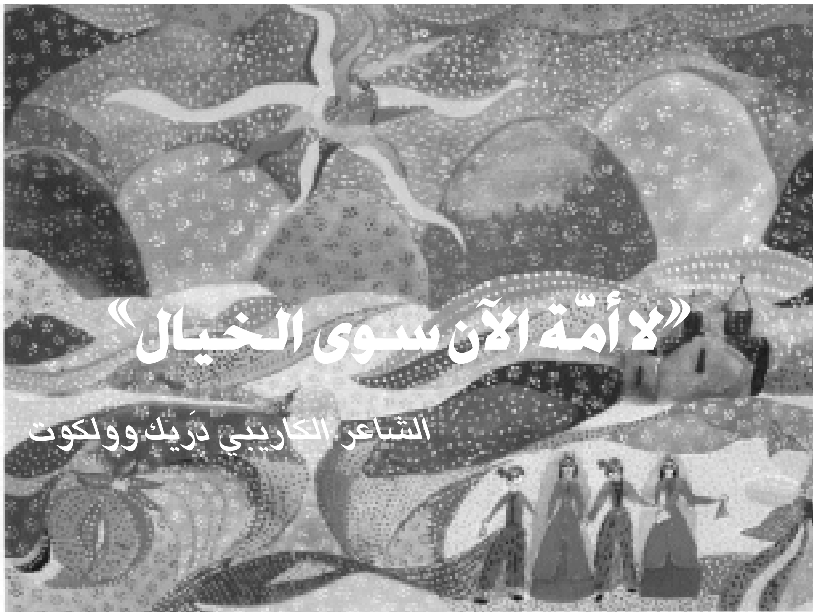

المفوضية العليا لشؤون اللاجئين – أرمينيا/مريم غالستيان، ١٠ سنوات

«س» صبي إثيوبي عمره ١٦ سنة، كان أبوه ناشطاً سياسياً معارضاً للحكومة الإثيوبية. وفي أحد الأيام هاجم بعض جنود الحكومة منزل «س»، وأطلقوا النار على أبيه فلقي حتفه برصاصة أصابته في عنقه، وانتحرت أمه في نفس اليوم. وتمكّن «س» من الفرار. أما المنزل فعبث به المهاجمون ونهبوه. وقد ساعدته إحدى عماته أو خالاته على الخروج من البلاد، وعندما وصل إلى المملكة المتحدة أحالته إدارة الهجرة إلى دائرة الخدمات الاجتماعية. وبعد أن أقام بعض الوقت في ملجأ للأطفال، شخص الأطباء حالته على أنها اضطراب عصبي ناجم عن صدمة، فتلقى مساعدة فعالة في هذا الصدد من إدارة خدمات الصحة النفسية للأطفال والمراهقين. ثم نقل في الآونة الأخيرة للإقامة بمفرده.

ويعد «س» شاباً مرحاً ودوداً، غير أنه ما زال يعاني من هول تجربته قبل فراره. وعندما زاره الأخصائي الاجتماعي المسؤول عنه في شقته الجديدة رأى إطاراً فوتوغرافياً فارغاً على رف المدفأة في غرفة الاستقبال، فسأله عنه فقال «س» إنه يأمل أن يجد صورة لأبيه وأمه في يوم من الأيام حتى يملأ بها هذا الإطار.

المرونة والضعف والعيش بإحساس عدم الأمان

تحدث الأخصائيون الاجتماعيون الذين أجريت المقابلات معهم عن الأسباب العملية والعاطفية التي تجعلهم يستمتعون بعملهم في رعاية الصغار البعيدين عن ذويهم أكثر من عملهم مع الصغار من مواطني المملكة المتحدة؛ ويبدو أن هؤلاء الصغار يعطونهم قدراً من الأمل المنعش بالمقارنة بمجموعة التحديات المضنية التي يطرحها الصغار من أهالي المملكة المتحدة. فطالبو اللجوء يُعتبرون فئة تتسم بالحيوية وتوافر الدافع الذاتي والالتزام بتحقيق أفضل ما يمكنهم من ظروفهم الحالية، فنجدهم يتطلعون إلى التفوق الدراسي ويتحلون بالشفقة والحرص. وبمجرد استقرارهم في أماكن توطينهم، يبدأون في تكوين علاقات طيبة ودودة يمكن الوثوق بها. وجدير بالذكر أن هناك بعض الصغار من طالبي اللجوء الذين أتوا دون أسرهم يعبرون عن حاجاتهم بالصراخ والأرق وتحطيم أشياءهم والتشكك في العلاقات والقوانين، ولكنهم مجرد أقلية. ومعظم صغار طالبي اللجوء نادراً ما يعانون من نوبات الاكتئاب الشديد، وما يترتب عليها من تدخل للعلاج الطبي أو النفسي. وهذا ما يقلق بعض الأخصائيين الاجتماعيين، الذين يخشون أن يخفي هذا القناع من الدماثة وراءه اكتئاباً داخلياً بسبب الإحساس بعدم الأمان في حياتهم.

وفي حقيقة الأمر، ومما يدعو إلى الدهشة في ضوء مستوى التعقد الذي يتسم به تفكير بعض الممارسين بشأن هؤلاء الصغار، أن الاعتبارات العملية أيضاً تغلب أحياناً على حاجتهم إلى التعرف على البحوث المتعلقة باللاجئين، أو التدريب أو الرقابة المتخصصة أو التشاور أو بناء الشبكات. وكثير منهم يعملون في غياب سياسة مفصلة بشأن بالصغار البعيدين عن ذويهم،[٣] فيعتمدون على خبراتهم الشخصية والمهنية لصياغة ممارساتهم. وفي بعض الأحيان يبدو أن هذا الاعتماد الضيق على الموارد الذاتية للمرء غير كاف، خصوصاً للقلة المحدودة من العاملين الذين لهم دور في وضع المبادئ العامة للممارسة في إطار الوكالات التي يعملون بها. ويبدو أن الكثيرين منهم يشقون طريقهم بأنفسهم دون مشاركة من أحد، وإن كان هذا الجهد الفردي مثمراً في حد ذاته.

إعادة طالبي اللجوء ولم شمل الأسر وإعادة التأهيل

لم يحصل أي شخص من المجموعة التي أجري عليها هذا البحث على وضع اللجوء. لكن بعضهم حصل على إذن استثنائي بالبقاء لأسباب إنسانية، بينما شرع آخرون لتوّهم في إجراءات تقديم الطلبات. لكن جميع الأخصائيين الذين أجريت مقابلات معهم أصروا على أن الصغار لا يريدون العودة إلى أوطانهم، وأنهم يتوقون إلى الحصول على وضع اللجوء، ويشتد عزمهم الراسخ على أن «يتعلموا» أو أن يصبحوا أناساً «لهم شأن» عندما يرون الشباب الذين مضى على إقامتهم في المملكة المتحدة بضع سنوات. وربما لأن الأخصائيين الاجتماعيين يتمنون الأفضل لهؤلاء الصغار، فلا أحد منهم يفكر في نتائج الإرجاع إلى الموطن إلا قلة قليلة فقط. ولكن طالبي اللجوء الصغار الذين يناهزون سن الرشد معرضون، بخلاف من أقرانهم من السكان الأصليين، لخطر الحرمان الاجتماعي بخروجهم من دائرة الرعاية، بل لاحتمال رفض إعطائهم الجنسية. وفي ختام المقابلات التي أجريتها مع الأخصائيين الاجتماعيين سألتهم هل يعرفون مع من سيبقى هؤلاء الصغار، في الدفعة التي يرعونها، على اتصال بعد أن يكبروا، فجاءت إجاباتهم أبعد ما تكون عن الوضوح.

فارقت الفتاة «ك» ابنة السبعة عشر عاماً أسرتها في إفريقيا منذ ست سنوات. وفجأة وبدون أي سابق إنذار تلقت خطاباً من والدها. وتقول الإخصائية الاجتماعية المعنية بحالتها:

عندما قابلتها في الأسبوع التالي قلت لها «إن كنت تريدين إطلاعي على الخطاب، فيسرني أن أراه». لكنها قالت «إنه ليس معي، فقد أحرقته». ثم تبين أن والدها كتب في هذا الخطاب شيئاً عن نفسه، وأنه الآن متزوج وله طفلان، منهما بنت اسمها «ك» على نفس اسم الفتاة. لقد كان لهذا الأمر أثر عاطفي مذهل على مشاعر الفتاة التي انفصلت عن والدها. فالآن أصبح عنده «ك» أخرى هناك، وقال إنه لم يتمكن من الاتصال بها من قبل بسبب الأوضاع في وطنهم.

ثم قالت لي الفتاة «ولكني كتبت له خطاباً على أي حال. أتريدين أن ترينه؟». وعندما أرتني الخطاب كادت دموعي تجري، لأنها كررت فيه مراراً عبارة «إنني أحبك جداً، ولا يمر عليّ يوم إلا وأفكر فيك، وستظل دائماً أبي مهما حدث».

الخلاصة

لا مناص من أن يتعامل هؤلاء الصغار مع الإحساس بعدم الأمان بطريقة مفعمة بالحيوية إذا ما أرادوا الحفاظ على بقائهم. وبالنسبة للعاملين الاجتماعيين يقتضي حسن الممارسة إيجاد توازن بين الاحتياجات العامة والحاجات المحددة الخاصة بالمجموعات التي يقومون على رعايتها، مما يعني انتهاج نهج يتسم بالحساسية تجاه أعبائهم، فلا يندفعون جرياً وراء المعلومات ولا ينكرون أهميتها على المدى الطويل. كما أن حسن الممارسة يعني أيضاً توفير الصلات على مستوى مقبول ومفيد لكل طفل على حدة. وغالباً ما يعمل الأخصائيون الاجتماعيون بمفردهم دون الانتفاع بتوجيه واضح قائم على سياسات أو بحوث. ومن ثم فإنهم لم يستغلوا بعد قدراتهم الكامنة على الحفاظ على حسن الممارسة باستخدام شبكة العلاقات بدلاً من الاقتصار على الجهود الفردية. كما أن إمكانية قيام كل طفل بالاتصال بأسرته من جديد، بعد أن يطمئن إلى أنه قد حصل فعلاً على اللجوء، لم يستفد منها بعد.

رافي كولي يشغل حالياً منصب محاضر أول في العمل الاجتماعي بجامعة ميدلسكس، ويركز في اهتماماته البحثية على تأثير التنوع على ممارسة العمل الاجتماعي. ويسره أن يتعرف على آراء الباحثين الآخرين الذين يدرسون حياة طالبي اللجوء الصغار في الدول الغربية الصناعية الأخرى.
البريد الإلكتروني: r.kohli@mdx.ac.uk

١. Audit Commission 2000 Another Country - implementing dispersal under the Immigration and Asylum Act 1999, The Stationery Officer. Stone R Young people first and foremost; meeting the needs of unaccompanied asylum-seeking young people Barnardo's, London, 2000.
يفد الصغار من دول عديدة، ومنهم أعداد كبيرة تأتي من يوغوسلافيا السابقة وأفغانستان والصومال وسريلانكا وتركيا والصين والعراق وأنغولا. وهناك دول أخرى مثل ألبانيا وإريتريا وسيراليون وإيران وإثيوبيا ورواندا ورومانيا. ويقيم هؤلاء الصغار أساساً في لندن وفي أماكن أخرى في جنوب إنكلترا حيث تتركز موانئ الدخول الرئيسية.

٢. Russell S Most vulnerable of all. The treatment of unaccompanied refugee young people in the UK. Amnesty International, 1999.

٣. لا تحتفظ إدارة الصحة بتفاصيل عن نوعية وجودة الرعاية التي يتلقاها القصر البعيدون عن ذويهم، ولا بسجلات مركزية بعدد الحالات التي تتعامل معها السلطات المحلية. وهناك دليل توجيهي للممارسات في هذا الصدد بعنوان: Unaccompanied Asylum-seeking Children - A practice guide/ training pack, Department of Health, 1995 ولكن هذا الدليل يحتاج إلى تحديث وإلى نشره وترويجه على المستوى الوطني.